رب ارجعـــــون

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾

[المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]

مجدي الهـــلالي



اسم الكتـــاب: رب ارجعون

المـــؤلـــف: مجدي الهلالي

مقـاس الكتاب: ١٤× ٢٠

الطبعة الثانية

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٥٥٦

الترقيم الدولي: ٣ -٨٧٣ -٤٤١ -٩٧٧ -٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّر وأعن يا كريم

إيقاظ القلب أولاً

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلو أن طالبًا في السنة النهائية من دراسته الجامعية ظلّ مستيقظًا طيلة ليلة اختباره الأخير ليستذكر ويراجع المنهج المقرر عليه، ثم أراد أن ينام سويعات قليلة بعد صلاة الفجر وحتى موعد ذهابه لأداء الاختبار، وأوصى والدته بضرورة إيقاظه في الوقت المحدد، وظلت والدته مستيقظة حتى حان ذلك الوقت، فذهبت إليه فوجدته يغُطُّ في سُبات عميق، فنادت عليه لتوقظه فلم يستيقظ، فأخذت تُذكّره بأهمية ذهابه للاختبار وتُخوِّفه من الرسوب، ومِن ثَمَّ التخلُّف فصلًا دراسيًّا آخر، وما يترتب على ذلك من تأخر التخرج وتأجيل للكثير من المشاريع الحياتية التي تنتظر إنهاءه لدراسته.. كل ذلك وصاحبنا لا يسمع كلامها، بل ظل مستغرقًا في نومه، فانتقلت

في حديثها عن المستقبل المشرق الذي ينتظره بعد تخرجه، وكيف أنها تُرتِّب له مع والده أمر الزواج، و... .

فهل تظن – أخي القارئ – أن هذه الطريقة التي تنتهجها تلك الأم ستجدي نفعًا في إيقاظ ولدها ومِن ثَم ذهابه في الموعد المحدد للاختبار؟!

أتخيلك – أخي القارئ – وأنت تجيبني قائلًا: وكيف سيسمعها وهو نائم؟!

كيف سيؤثر فيه هذا الكلام مهما جمع من الترغيب والترهيب وهو غارق في النوم؟

إن الحل الأمثل لإيقاظه هو القيام بهزِّه مرات ومرات حتى يستيقظ، فإن لم يُجْدِ الهزُّ نفعًا فعلى الأم أن تنتقل إلى استخدام وسائل أشد وأشد حتى يستيقظ ويدرك حقيقة الوضع الخطير.. حينها سنجده يسابق الزمن لتجهيز نفسه واللحاق بالاختبار.

هذا المثال البدهي ينطبق إلى حد بعيد على حالنا وطريقة تعاملنا مع اختبار الدنيا، بمعنى أننا جميعًا لم نوجد في هذه الحياة لنأكل أو نشرب أو نتزوج أو نلهو، بل لأمر عظيم، ألا وهو: عبادة الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ

وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]..

فالله جل شأنه لم يخلقنا إلا لذلك، وسواء شئنا أم أبينا فالاختبار يجري كل يوم، ونهايته تقترب بقدر مرور الأيام والليالي، وبلوغها الأجل المحدد لكل فرد، وبعد ذلك سنعود إلى الله رضينا أم أبينا: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]..

إن الليل والنهار لا يتوقفان عن التعاقب، والنهاية المحددة لكل عبد في الدنيا تقترب ومع ذلك لا نرى من أحوالنا ما يدل على ذلك: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١].. أتدري أخي لماذا؟! لأن قلوبنا تغُط في سُبات عميق: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾

[الأنبياء: ٢، ٣]..

فما العمل في هذه المصيبة؟

لو عدنا لمثال الأم ومحاولتها لإيقاظ ابنها وأسقطناه على واقعنا لوجدنا أن الحل ينبغي أن يبدأ بهز القلب مرات ومرات حتى يستيقظ من رقدة الغافلين، ويفيق من سكرة اللاهين، وبدون هذه الطريقة فلن تكاد تُجدي الوسائل الأخرى نفعًا..

ومن أهم الوسائل التي يمكنها أن تهز القلب وتوقظه من سُباتِه: الإكثار المتوالي من تذكُّر الموت، والتنوع في استخدام الأساليب التي تحقق ذلك، ويكفيك في تأكيد هذا المعنى قوله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسَّعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيَّقها عليه..**»(١).

وعن صفية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن امرأة أتت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا لتشكو إليها القسوة، فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك، وتقدرين على حاجتك، قالت: ففعلت؛ فآنست من قلبها رشدًا، فجاءت تشكر لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا(٢).

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: أكثر ذكر الموت؛ فإنك لا تذكره عند واسع من الأمر إلا ضيَّقه عليك، ولا عند ضيق من الأمر إلا وسَّعه عليك.

وكتب إلى بعض أهل بيته: أما بعد؛ فإنك إذا استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بَغَّض إليك كل فانٍ، وحبَّب إليك كل باق، والسلام.

---

(١) حسن: أخرجه البيهقي في الشعب، وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث (١٢١١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا بإسناده عن منصور بن عبد الرحمن.

وقال شميط بن عجلان: من جعل الموت نُصب عينيه لم يُبال بضيق الدنيا ولا بسعتها[١].

وكما أسلفنا فإنه لكي يتحقق المستهدف من ذكر الموت في الانتقال من حالة الغفلة إلى اليقظة فإن ذلك يحتاج إلى الإكثار والتتابع والتنوع في الوسائل وبخاصة في البداية، ويؤكد على هذا المعنى أبو حامد الغزالي فيقول:

إعلم أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم فيه، وذكرهم له، ومن تذكَّره منهم فإنما يذكره بقلب غافل مشغول بشهوات الدنيا لا بقلب فارغ، فلهذا لا ينجح ذكر الموت فيه.

والطريق في ذلك: أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا، وينكسر قلبه[٢].

والصفحات القادمة تطرح - بإذن الله - وسيلة إضافية من وسائل تذكر الموت[٣] وهي تخيل الأحداث والمشاهدات التي قد

---

(١) منهاج القاصدين لابن الجوزي ٣/ ١٤٢٩- ١٤٣٠، دار التوفيق للنشر- دمشق.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٣٠.

(٣) وسائل تذكر الموت كثيرة منها: زيارة المقابر وبخاصة مقابر الأقارب والأصدقاء،=

تمر بالواحد منا بعد موته، والأمنيات التي يتمنى تحقيقها لو أُجيب طلبه بالرجوع إلى الدنيا مرة أخرى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

***

=وزيارة أقسام الطوارئ والحوادث والرعاية المركزة بالمستشفيات، وكتابة الوصية التفصيلية، وشراء الكفن، والاستماع إلى المواعظ، والقراءة في كتب الرقائق مثل «التوهم» للمحاسبي، و«التبصرة» لابن الجوزي، و«التذكرة» للقرطبي.

ليلة في القبر

منذ اللحظات الأولى التي يولد فيها الإنسان ويطأ فيها الوجود؛ يبدأ العد التنازلي لحياته، ويوما بعد يوم يقترب من أجله، إلى أن يلاقي الموت مع آخر ورقة في عمره... ولا يستطيع الإنسان -أي إنسان- مهما بلغت قدراته وإمكاناته وسلطانه أن يفر من الموت: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]. فالموت آية من آيات الله قهر بها عباده: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠].. بل وتحداهم سبحانه وتعالى بها فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧]..

ولا يزال التحدي مستمرًا لجميع البشر، فلو لم نكن عبيدًا مقهورين بإرادة الله عز وجل الكونية لاستطعنا أن نعيد الروح إلى الجسد ولمنعنا ملك الموت من أخذها..

إن عجلة الزمن تتحرك بنا جميعا نحو أجلنا وسيأتي علينا -لا محالة- يوم نعاين فيه سكرات الموت.

لحظة عصيبة:

إنها لحظات عصيبة تلك التي يرى الواحد منا فيها ملك الموت، وقد جاء لقبض روحه، ومن خلفه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب... عندها سيتأكد أن الأمر جدٌ لا هزل فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] .. وستصبح أمنيته الوحيدة العودة مرة أخرى إلى الدنيا لا لشيء إلا للتوبة والعمل الصالح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

بين النوم واليقظة:

ليتخيل كل منا نفسه في هذا الموقف الرهيب وهو يتمنى أن يُمنح مهلة للعودة إلى الدنيا - ولو للحظات - ليصلح فيها ما أفسده، ويعيد فيها كل حساباته.. فيُرفض طلبه، وتُقبض روحه، ويأتي المغسل فيغسله ويكفنه، ثم يحمله الأهل والأصحاب إلى المسجد فيصلون عليه، وبعدها يذهبون به إلى قبره فيضعونه في حفرة ضيقة، ثم يغلقونها عليه بالتراب وينصرفون عنه فيصبح وحيدًا في بيته الجديد الذي كان ينادي عليه كل يوم قائلًا: أنا بيت الدود، أنا بيت الوحدة، أنا بيت الوحشة... **هذا ما أعددت لك فماذا أعددت لي؟!**

وكأن لسان حاله يقول: هذا المكان الموحش سيكون بيتي؟! وسأظل فيه إلى قيام الساعة؟! كيف سأعيش فيه هذه المدة أم كيف سأطيقه؟!

عندها يتذكر ما كان يسمعه في الدنيا من أن تجهيز القبر وتعميره لا يكون إلا بالأعمال الصالحة، وبقدر رصيد العبد منها يكون مستوى التجهيز والتعمير كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]..

شريط الذكريات:

ليتخيل كل منا نفسه بعد أن فوجئ بالظلمة والوحشة والضيق، وهو يستعرض شريط ذكرياته في الدنيا وحجم الأعمال الصالحة التي قام بها ولماذا لم يجد لها أثرًا واضحًا في حياته البرزخية؟

يبدأ بالصلاة فيقول: أين أثر صلاتي؟!

لقد صليت كثيرًا فلماذا لا أكاد أجد أثرًا لذلك؟! فيتذكر أنه كان لا يحافظ عليها في أول وقتها، بل كان يصلي أغلبها وسط ضجيج الأطفال وصوت المذياع والتلفاز، وفي حالة أدائها بالمسجد يكون الذهن مشغولًا بموضوعات شتى، وكم من المرات كان يُفاجأ بالإمام وهو يسلم تسليمة الختام؟

فإذا به يخاطب نفسه:

إذن فما سمعته عن الصلاة كان صحيحًا من أنه: ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها[١]..

فالله عز وجل لا يريد حركات الجوارح من قيام وقعود دون حضور القلب وخشوعه فيها، وكذلك في كل العبادات ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

فالقلب هو محل نظره سبحانه وتعالى كما قال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٢].

أين أثر الصيام؟

فإذا كان هذا هو حال الصلاة، فماذا عن الصيام؟ أين أثره في قبري؟

فيتذكر الواحد منا كيف كان يمر عليه شهر رمضان وكيف

---

(١) عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرجل لينصرف وما كُتب له إلا عُشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**» صحيح: رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح(٥٣٥).

(٢) أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة.

كان مفهومه للصيام فيقول: لقد كان همي وفكري في كيفية انقضاء ساعات اليوم، فالامتناع عن الطعام والشراب كان أمرًا شاقًّا عليّ، لذلك كنت أعمل جاهدًا على شغل وقتي بما يلهيني عن التفكير فيهما، فأنام أغلب النهار، وأقضي الوقت المتبقي في مشاهدة التلفاز وما فيه من أعمال تُغضب الله عز وجل.

لقد سمعت كثيرًا وأنا في الدنيا أحاديث للرسولﷺ من أنه «**رُبَّ صائم حظُّه من صيامه الجوع والعطش**»[١].

و«**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[٢].

وكأني تناسيت هذا كله، فلم أترك الغيبة والنميمة في رمضان، ولم أغض بصري عما حرم الله.

القرآن هو الأمل:

إذا كان هذا هو حال الصلاة والصيام فليكن أملي في القرآن..

أين هو؟!! لقد قرأته وختمته مرات ومرات.. فلماذا لا أجد أثره؟!

(١) صحيح الترغيب والترهيب (١٠٧٦).

(٢) رواه البخاري.

نعم تذكرت، لقد كنت أقرأه وأنا مشغول البال، شارد الذهن، فلم أتدبر معانيه، ولم أقف عند أحكامه وحدوده، ولم أتخذه مصدرًا للهداية والشفاء.

ومما يزيدني ألـمًا وحسرة؛ أنني كنت أسمع وأنا في الدنيا الكثير من الآيات والأحاديث التي تحثني على تدبر القرآن والتأثر به لتحصيل الهدى والشفاء، وتذُم من يقرؤه وهو غافل، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فلينصرف فليضطجع**»[1]، وقوله لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو يوضح له سبب نهيه عن قراءة القرآن في أقل من ثلاثة أيام: «**لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث**»[2].

لقد كنت أسمع وأقرأ هذه الآيات والأحاديث وغيرها ولا أتفاعل معها، وكنت دوما اجتهد في إقناع نفسي بأن قراءة القرآن ما هي إلا وسيلة لتحصيل الأجر والثواب فقط، ومِن ثَم فلا بأس من

(١) صحيح الجامع الصغير (٧١٧).
(٢) صحيح الجامع الصغير (١١٥٧).

تلاوته دون فهم ولا تعقل. ولكني اليوم أُسأل: لماذا لم يُر لقراءتك أثرا في قولك ولا سلوكك..

رصيد الحسنات:

ثم ليتخيل كل منا نفسه وهو يحاول أن يتذكر أي عمل صالح قام به فلا يجد إلا اليسير، وفي المقابل؛ يجد أن رصيده من السيئات كبيرًا، فيتذكر حاله مع والديه، كيف كان يعاملهما، وبخاصة عند كبر سنهما، وازدياد حاجتهما إليه...

لقد نسينا ما فعلوه من أجلنا ونحن صغار حتى أصبحنا رجالًا ونساء نحمل الشهادات ويُشار إلينا بالبنان، ولولاهما – بعد فضل الله عز وجل – لكنا غير ما كنا.. وبدلًا من برهما، والعمل على رد بعض جميلهما كان جزاؤهما غلظة في الكلام وسرعة الضجر والضيق من أفعالهما، وعدم تلبية طلباتهما.. لنتذكر ذلك وليقل كل واحد منا لنفسه: أنا لم أفكر يومًا في إدخال السرور عليهما، بل أسقطهما من حساباتي، وتناسيت حقوقهما عليَّ... لقد أغلقت بيدي بابًا عظيما من أبواب الخير[1].

---

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رغِم أنف، رغِم أنف، ثم رغِم أنف من أدرك أبويه عند الكِبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة**» رواه مسلم، ورغِم أنف: أُلصِق بالتراب.

ثم لنتذكر الأقارب من أشقاء وأخوال وأعمام وفروعهم، ونتذكر كيف كانت صلتنا بهم محدودة، إن لم تكن مقطوعة، فيقول الواحد منا لنفسه: لقد كنت أسمع كثيرًا عن أهمية صلة الرحم، وأنها تُبارك العمر وتُنمي الرزق، ولكني تغافلت عن ذلك الخير العميم، خوفًا مما قد يكلفني من مال ووقت، وياليتني ما فعلت ذلك.. لقد كانت مقاييس السعادة مختلة عندي.. كنت أظنها في جمع المال والاستمتاع بالحياة دون النظر للوظيفة العظيمة التي خلقنا الله عز وجل من أجلها.

لقد لهثت وراء الدنيا أجمع المال.. لم أفكر يومًا في الإنفاق على الفقراء والمساكين والمجاهدين خوفًا من الفقر.

كانت خواطري تدور حول كيفية الاستمتاع بالحياة، وكنت دائم السهر مع زوجتي وأولادي أمام الفضائيات وما تبثه من مشاهد تغضب الله جل شأنه، ولا نتركه إلا في ساعة متأخرة من الليل.. لقد كنت أظن أنني بذلك أُسعد نفسي وأهلي ولكنني تأكدت الآن بأني قد ظلمتهم أيما ظلم.

ولم يقتصر الأمر على هذا وفقط، بل كنت أُنفق الكثير من المال في الاحتفال بالمناسبات التي لا تمت للإسلام بصلة كرأس السنة وشم والنسيم وغيرها..

ذكريات مريرة:

.. لم أتزوج من تعينني على أمر ديني، بل بحثت على من هي على شاكلتي فأعانتني على أمر دنياي، وقامت بتربية أولادي على أمر الدنيا، والحرص على مصالحهم الشخصية فقط، فلا بأس من الكذب إن كان يؤدي إلى تحقيق منفعة أو دفع مضرة، ولا مانع من وضع المال الزائد عن حاجتنا في بنك ربوي طالما أن ذلك يصب في مصلحتنا ويزيد من رأس مالنا..

.. لم أفكر يومًا في أمر زوجتي بالزي الشرعي السابغ الفضفاض الذي لا يصف ولا يشف.. لم أمنعها من الاختلاط بالرجال، وكثيرًا ما كانت تستقبل معي الأقارب والأصدقاء.

.. حبي الشديد للدنيا وحرصي على تحصيل أكبر قدر منها جعلني أحسد الآخرين على ما أوتوه منها، فكلما ذهبت إلى الفراش أجد ذهني مشغولًا بأحوال غيري، وأجد في نفسي ضِيقًا وغمًّا كلما أصاب الخير أحدًا حولي، وأُسَرُّ وأفرح إذا فقدوا هذا الخير أو أصابهم مكروه.

.. يسرت لأولادي الكثير من أسباب الراحة والنعيم ظنًّا مني أني بذلك أسعدهم.. أدخلتهم مدارس اللغات الأجنبية التي تهمل

تعليم اللغة العربية كلغة أساسية.. ألحقتهم بالنوادي وكنت أُقاتل من أجل إشراكهم في أكبر قدر من أنشطتها المفيدة وغير المفيدة، ولم أهتم كثيرًا بالذهاب بهم إلى المساجد، وربطهم بها، وتحبيبهم فيها..

.. كنت أنام حزينًا مكتئبًا عندما ينهزم الفريق الذي أشجعه، ولم تهتز لي شعرة أو تسقط مني دمعة عندما تبلغني مصيبة من المصائب التي حلَّت بالمسلمين في فلسطين أو كشمير أو بورما أو تركستان أو .... .

كنت معجبًا بنفسي وقدراتي ولا أكاد أترك مجلسًا إلا وتحدثت فيه عن أمجادي وتاريخي وقدراتي وعائلتي ونسبي..

.. لم أفكر يومًا في أحوال المسلمين، وما يعانون من ظلم واضطهاد وقتل وتشريد، مع أن الأبواب كانت أمامي مفتوحة لمد يد العون إليهم..

لم أضع يدي في يد العاملين للإسلام، فخوفي من التبعات – بكل أشكالها – جعلني أنصرف عنهم، بل وكثيرًا ما كنت أستهزئ بهم مع المستهزئين وأرميهم بالتهم كي أبرر لنفسي القعود عن نصرة الإسلام..

أي غفلة كنت غارقًا فيها؟ والملكان الموكلان بي يسودان الصفحات، ويحصيان عليَّ كل شيء لحظة بلحظة، ويوما بيوم، وإذا ما ذكَّرني أحد بذلك غرقت في بحر الأماني بأن الله غفور رحيم، ويكفيني أن أحج البيت الحرام بعد بلوغي سن التقاعد فأعود من ذنوبي كيوم ولدتني أمي.... ويالها من سذاجة.

***

حســــرات

ليتخيل كل واحد منا نفسه بعد أن مر به شريط الذكريات وهو يقول: يا حسرتى على الفرصة التي ضاعت مني، وعلى السنين التي قضيتها بعيدًا عن الله..

لقد ظلمتك يا نفس أيما ظلم عندما آثرت رضاك واتبعت هواك، فتركت الكثير والكثير من الأعمال الصالحة لأنها كانت تتعبك، ولهثت وراء الدنيا من أجل تحصيل ما يرضيك..

.. لم أرفض لك طلبًا ظنا مني أنني بذلك أسعدك، ويا ليتني ما فعلت ذلك، فاليوم لا أجد إلا نتاج أعمالي السيئة، ولا أرى أثرًا يُذكر لأعمالي الصالحة..

يا نفس:

فيا نفس أيهما كان أحسن لك: الصبر على طاعة الله في الأيام القليلة التي قضيناها في الدنيا ثم يعقب ذلك راحة ونعيم لا نهاية لهما، أم العكس؟!

لقد بخلت عليك بالنعيم المقيم عندما آثرت رضاك وتبعت

هواك، ولو أني جاهدتك وفطمتك عن الشهوات وألزمتك طاعة الله لكنت الآن أتنعم بروضة من رياض الجنة، ولكنت منتظرًا بشوق ولهفة قيام الساعة لدخول جنات الرحمن وما فيها من نعيم، ولكن هل ينفع اليوم الندم؟!

لقد أقام الله علينا الحُجة كاملة؛ فالقرآن الذي كان بين أيدينا حدثنا عن كل شيء سيحدث لنا، وحذرنا من خطورة الانغماس في الدنيا، والتعلق بها، وأخبرنا بنبأ من سبقنا لنعتبر بهم، وللأسف لم تنفعنا العبرة، بل أصبحنا ممن يُعتبر بهم.

أين كان عقلي عندما انشغلت بتحصيل متاع الدنيا الزائل، وتركت المهمة التي من أجلها خُلقت؟!

أي شيطان رجيم هذا الذي زين لي حب الدنيا والتمتع بزخارفها والحرص عليها؟!..

أي عداوة تلك التي كان يُكنّها لي فجعلته لا يفارقني ليلًا أو نهارًا فيزين لي فعل المحرمات وترك الواجبات، ولم يتركني إلا عند نزع الروح لتأكده من نجاحه في مهمته.. لقد حذرنا ربنا مرارًا من هذا اللعين فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]..

.. وأنتِ يا نفس؛ لقد كنتِ عونا للشيطان عليّ، فلقد استغل جهلك وحبك للمال وولعك بالشهوات وطلبك للعلو والرفعة عمن حولك فجعلك سلاحه الذي سيطر به على قلبي وإرادتي.. فبإلحاحك المستمر دفعتيني لفعل ما تريدين، فحقق كل مآربه مني عن طريقك أنت..

.. أتذكرين كم من المرات عزمت فيها على الصيام تطوعًا لله فمنعتيني بدعوى الخوف من الصداع والإعياء؟! وكم من الليالي حاولت فيها القيام لله فزينت لي طيب المنام، فينقضي الليل دون أن أفوز بالغنيمة التي يمنحها الله لعباده المتهجدين في كل ليلة؟!

أتذكرين ماذا كنت تفعلين بي عندما أسمع صوت المؤذن لصلاة الفجر وضميري يؤنبني عندما يردد: الصلاة خير من النوم .. ألا تذكرين إلحاحك لمواصلة النوم، وتزيينك لي طيب الفراش وحلاوة الراحة؟ لقد ضيعتِ عليّ هذه الصلاة في وقتها فنادرًا ما صليتها قبل شروق الشمس، وقلما صليت سُنتها التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**»[1]... خير من المال والوظيفة والطعام والشراب والزوجة والأولاد، والذهب والفضة..

(١) رواه مسلم.

لم أدرك قيمة هذا الكلام إلا الآن بعد أن رأيت الحال هنا، وانكشف الغطاء أمامي فوجدت الدنيا بأسرها لا تساوي شيئًا ينبغي الحرص عليه إلا طاعة الله عز وجل.. لقد شغلتيني يا نفس باللهو واللعب ومجالس اللغو والغيبة والنميمة والكذب والتفاخر، وكلما ذكرتك بالموت وأننا صائرون إليه لا محالة ضقت ذرعًا، وعملت جاهدة على صرف الذهن إلى أمور أخرى كي لا ينغص هذا الأمر عليك تمتعك باللذائذ والشهوات..

ضاع كل شيء:

لقد ضاع كل شيء، ضاع تعبي ولهثي وراء المال، لقد انشغلت بتأمين مستقبل أولادي في الدنيا ونسيت تأمين مستقبلي ومستقبلهم الحقيقي هنا في القبر، وهناك في دار الخلد..

لقد اتضح لدي الآن بعد أن انكشفت الغشاوة عن عيني، ورأيت الدنيا على حقيقتها، أن مفهومي للمستقبل لم يكن صحيحًا.. فالمستقبل الحقيقي للإنسان يبدأ بعد الموت، فمهما جمع من مال في الدنيا فسيتركه، ومهما أحب من شيء فيها فسيفارقه... أما الذي يبقى فهو الطاعات: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

فوامصيبتاه على ما ضاع مني من فرص لتأمين مستقبلي الحقيقي، وواحسرتاه على ثواب صلاة الجماعة الذي فاتني(١).

ويا خيبة أملي عندما ضاعت مني فرصة بناء بيت في الجنة بصلاة اثنتى عشرة ركعة كسنن رواتب للصلوات الخمس(٢).

ويا عظيم خسارتي عندما فاتتني فرصة التبكير لصلاة الجمعة(٣).

لم أستفد بتحصيل ثواب حجة وعمرة تامتين حين لم أجلس في المسجد أذكر الله تعالى بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس ثم أصلي ركعتين بعدها(٤).

ضاعت مني فرصة صيام التطوع، فكل يوم يصومه العبد

---

(١) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**» متفق عليه.

(٢) عن أم المؤمنين أم حبيبة ل قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم يصلي لله تعالى اثنتي عشرة ركعة غير الفريضة إلا بنى الله له بيتا في الجنة**» رواه مسلم.

(٣) عن أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من غسل يوم الجمعة واغتسل، ثم بكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع وأنصت ولم يلغو كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد عمل سنة أجر صيامها وقيامها**» صحيح الجامع ح (٦٤٠٥).

(٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة**» صحيح الجامع ح (٦٣٤٦).

يباعد بينه وبين النار سبعين خريفا[١].

يا خيبة أملي في أولادي، لقد تركوني وحيدًا، ولما أجد أثرًا لدعائهم لي كأنهم نسوا أني أبوهم وأحتاج إلى دعائهم.

الاستثمار النافع:

ليتني أنفقت الكثير مما كان يزيد عن حاجتي من المال في سبيل الله، فهذا هو الرصيد الحقيقي الذي ينفع العبد... لقد ضاعت مني فرصة استثمار مالي عند الله... لقد كان المقابل سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء.. كيف كنت غافلاً عن هذا الخير العميم؟!

أي غشاوة تلك التي كانت على عيني؟! وأي صدأ كان على قلبي؟!

القرآن مليء بالآيات التي تحثنا على الإنفاق في سبيل الله رحمة بنا وتأمينًا لمستقبلنا، لقد استقرضني الله عز وجل ليطفئ بإنفاقي خطاياي، وينوِّر قبري، ويظلني بظل هذا الإنفاق يوم القيامة، ولكني أبيت إلا إمساك المال، فنفسي كانت تخوفني دائمًا من الفقر والمجهول... فأي تعاسة وأي كرب، وأي ندامة أشعر بها وأنا

(١) قال ﷺ: «**ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله تعالى إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا**» متفق عليه.

أتذكر قول الله عز وجل: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١١].

يا مصيبتاه على تضييعي لوقتي دون ذكر الله، فالذكر عبادة خفيفة لا تحتاج إلى كثير معاناة.

يا حسرتاه على القرآن الذي تركته مهجورًا، فلم أداوم على قراءته ولم أتدبر معانيه أو أتخلق بها، وضيعت على نفسي فرصة عظيمة للتغيير الحقيقي الذي يُرضي الله عز وجل.. لقد سهرت ليال كثيرة من أجل الحصول على شهادات تنفعني في الدنيا لتخدم سيرتي الذاتية، ولم أشأ أن أتعب نفسي لنيل شهادة القرآن، والتي يمتد نفعها إليَّ هنا في قبري، بل وهناك في دار الخلد حيث يأتي القرآن شفيعًا لصاحبه الذي كان يعمل به.

يا ليتني قدمت لحياتي:

ليتني استبدلت المصايف التي كنت حريصًا على مداومة التنزه فيها بالسفر إلى بيت الله الحرام لأداء الحج والعمرة فأكفِّر عن سيئاتي، وأجلو الصدأ عن قلبي، وأزوده بالتقوى والإيمان[١].

---

(١) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : «**أديموا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد**». صحيح الجامع حديث (٢٥١).

ليتني اتبعت سنة رسول الله ﷺ ... ماذا سأقول له حينما أراه يوم القيامة..

ليتني قمت بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشاركت العاملين للإسلام عملهم في سعيهم لتحكيم شرع الله في سائر شئون الحياة.

ليتني استمعت لنصيحة سيد المرسلين ﷺ عندما قال: «**الكيِّس من دان نفسه، وعمل لَمَا بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»[1].

يا ليتني قدمت لحياتي

***

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، ومعنى الكيس: العاقل، دان نفسه: حاسبها.

مشاهــــدات

وبعد أن مر علينا شريط الذكريات، وازداد ندمنا وحسرتنا كلما تذكرنا الفرص التي أضعناها لتأمين مستقبلنا؛ ليتخيل كل منا نفسه وهو يشاهد أحوال بعض الموتى الذين أطاعوا الله ورسوله واستفادوا من عمرهم في غرس الكثير من الأعمال الصالحة مما مكنهم من جني ثمارها بعد مماتهم، فقبر الواحد منهم على مد البصر وهو فيه يتقلب متنعما في روضة من رياض الجنة، وليس ذلك فحسب؛ بل إنه يرى مقعده ومكانه وقصوره في الجنة وما فيها من حور عين وطعام وشراب وفاكهة وخدم فيزداد اشتياقه إلى قيام الساعة.

الكثير من هؤلاء السعداء كانوا من الفقراء الذين تزدريهم أعين الناس، لكنهم لم يكونوا مجهولين عند ربهم... فهذا كان من أهل المساجد، لا تكاد تفوته تكبيرة الإحرام، وهذا كان من أهل قيام الليل المستغفرين بالأسحار... وهذا كان يتصدق ويبالغ في إخفاء الصدقة حتى لا تكاد شماله تعلم ما أنفقت يمينه..

أما هذا فقد شغله تدبر القرآن وإطالة النظر في معانية عن النوم فصحبه في قبره ونوَّره ووسعه عليه..

وهذا كان من العاملين للإسلام المجاهدين في سبيله، الساعين في خدمة الناس وتخفيف معاناتهم مع الأخذ بأيديهم إلى الله جل شأنه..

أما هذا فله وضع خاص.. لقد أبت الأرض أن تحلل لحمه، أما روحه فهي في حواصل طير خضر معلقة في العرش تسبح في الجنة وقتما شاء..

إنه الشهيد!!

يالسعادته ويالفرحته.. ويالحسرتي، فلقد كان يمكنني أن أصل إلى ما وصل إليه لو كنت قد عقدت العزم على ذلك، وسألت الله الشهادة بصدق وعزم أكيد كما قال ﷺ: «**من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[(١)].

يالفرحة هؤلاء جميعًا بهذا النعيم الذي يتقلبون فيه، والذي لا يساوي شيئًا بجوار ما سيرونه هناك في دار الخلد... لقد زرعوا ما

(١) رواه مسلم.

طلبه الله منهم أن يزرعوه فحصدوا فوق ما تخيلوه.. أما أمثالي فلم يحصدوا إلى الغم والضيق، وصحبة عمله السيئ في حفرة ضيقة مرعبة.

القبور المظلمة:

ولكن مالي أرى أغلب القبور مظلمة؟ ماذا كان شأن أصحابها في الدنيا؟

لقد كنت أظن أنني على صواب عندما كنت أرى حالي في الدنيا كحال الغالبية العظمى من الناس، ولكن للأسف الشديد كان هؤلاء جميعًا في غفلة مثلي كما وصفهم ربهم ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

لقد انخدعوا ببريق الدنيا فآثروا شهواتهم على رضا ربهم فكانت النتيجة تلك القبور المظلمة التي تمتلئ على أصحابها نارًا..

لقد كانوا لا يتورعون عن فعل الموبقات، فهذا كان يشرك بالله، ينذر لغيره، ويذهب للسحرة والكهنة ويتلمس النفع من أصحاب الأضرحة، وهذا كان تاركًا للصلاة، عاقًّا لوالديه، قاطعًا لرحمه.. وهذه كانت تتجسس على جيرانها، وتمشي بالنميمة وسط

الناس.. وهذا أدمن الكذب وظلم الناس وأكل حقوقهم.. وهذه كانت تخرج من منزلها متعطرة كاشفة شعرها وجزءا من جسدها.

أحصاه الله ونسوه:

لقد أحصى الله كل شيء ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].. فالملكان الموكلان بتسجيل أعمال كل فرد لم يغفلا عن عملهما ولو للحظة واحدة كما أخبرنا ربنا ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]..

ومع كل ما يحدث هنا في الحياة البرزخية من ضيق وظلمة وعذاب فإنه لا يساوي شيئا مذكورًا بجانب ما سيحدث في الآخرة.

فالكثير من هؤلاء من أصحاب القبور المظلمة والأعمال السيئة يرون مقعدهم من النار وما أُعد لهم من صنوف العذاب ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

يبحثون عن طعامهم فيها فيجدوه ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾

[الدخان: ٤٣ - ٤٦].

فإن طلبوا الماء وجدوه ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فراشهم وغطاؤهم من النار ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: ٤١].

عذابًا لا يُطاق ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾

[المزمل: ١٢، ١٣].

يتمنون فيها الموت ولكن هيهات هيهات ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦].

يرون هذا كله فيزداد غمهم وكربهم فيقولون يا رب لا تُقم الساعة.

أمنية الجميع:

الكل بلا استثناء يتمنى العودة إلى الدنيا ولو للحظة يسبح الله فيها تسبيحة أو يسجد فيها سجدة.. لقد أيقنوا بأنهم قد ظلموا أنفسهم وخدعتهم الدنيا بزخرفها، وتأكدوا من حقيقة عداوة الشيطان لهم، وأنه عدو حاقد حاسد لا يترك العبد إلا إذا تأكد من أنه صائر إلى النار.

خدعهم إمهال الله لهم وعدم عقابهم الفوري على ذنوبهم، وغرهم ستره المرخي عليهم فظنوا أن الأمر سيكون كذلك بعد الموت كما قال صاحب الجنتين ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وتناسوا قول الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

الآن تذكَّروا نداءات ربهم المتكررة لهم في كتابه بسرعة العودة إليه والتصالح معه قبل فوات الأوان ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

ولكن هل ينفع اليوم الندم؟! ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

***

حلم العـــودة

وبعد أن استعرضنا شريط الذكريات وانكشفت الحقيقة أمامنا وتبين لنا كم كنا مخدوعين في الدنيا، زاهدين في بضاعة الآخرة، وتأكد لدينا أننا قد ظلمنا أنفسنا عندما سرنا وراء رغباتها، ولم ننهها عن هواها فلقد أسعدناها لحظات يسيرة، سعادة وقتية يشوبها الكدر، اشترينا بهذه اللحظات مصيرًا بالغ السوء هنا في القبر وهناك في الآخرة، وياليت لهذا الكرب نهاية ...

وفي المقابل فلقد رأينا حال من ألجم نفسه بلجام التقوى، وخاف مقام الله عز وجل، وصبر قليلًا على طاعة ربه في الدنيا فأعقب ذلك راحة وسعادة أبدية.

ليتخيل كل واحد منا مقدار الحسرة التي تملؤه على الفرصة التي ضاعت منه، ثم ليتخيل أنه يُمنِّي نفسه بأنه سيعود مرة أخرى إلى الدنيا فيقول: لماذا لا أحلم بأن الله عز وجل قد منحني بالفعل فرصة أخرى للعودة إلى الدنيا فكيف سيكون حالي فيها بعد ما رأيت ما رأيت؟ بالتأكيد أن حالي سيكون مختلفًا اختلافًا كليًّا عما كنت عليه قبل الموت.

مع الصلاة:

سأكثر من الخُطى إلى المساجد، وسأسابق الناس إلى الصف الأول في الصلاة، وسأحشد كل معاني الخشوع فيها، وسأقف لخواطر الدنيا بالمرصاد، ولن أسمح للشيطان بسرقة شيء من صلاتي..

لن أترك سنة مؤكدة أو مستحبة إلا وأديتها..

سأحيي جزءا معتبرًا من ليلي بالذكر والصلاة والاستغفار..

سأجعل الموت نُصب عيني، وسأنتظر مجيئه في أي لحظة، فإذا ما أصبحت فلن أتوقع العيش حتى المساء، بل سأعتبر أن كل يوم ينشق فجره هو آخر يوم لي في الحياة، وكل صلاة أدخل فيها هي صلاة مودع للدنيا..

سأهجر المعاصي فلن أُرَى في مجلس لهو أو لغو، ولن أتكلم إلا بالخير والإصلاح بين الناس..

سأسعى في طلب الرزق لتوفير قوتي وقوت عيالي ولكن دون لهث أو ركض وراء المـال.

سأنفق قدر وسعي واستطاعتي في سبيل الله سرًّا وجهرًا، وسأحرص على أن يُدَوَّن اسمي مع المنفقين كل يوم عند الله عز

وجل لأنال رضاه - سبحانه- وأنال كذلك دعوة الملك الذي يقول كل صباح: اللّٰهم أعط منفقًا خلفًا[١].

سأحيا بالقرآن:

.. سأداوم على حضور مجالس العلم النافعة المقربة إلى الله، وسيكون لي وردًا يوميا من القرآن أحافظ عليه مهما كانت ظروفي، ولن يكون همي هو الانتهاء منه فقط، بل سأتدبر آياته، وسأعيش معها، وسأستمع إليها كأنني المخاطب بها، وسأستخلص منها دروسًا عملية أصبغ بها حياتي، فالقرآن منهج حياة وكتاب هداية.

.. سأطيع والدَيّ، وسأحسن إليهما بكل ما أستطيع..

سأصل رحمي وإن قطعوني، وسأعطي من حرمني، وسأعفو عمن ظلمني، فليس هناك وقت للعتاب أو الانتقام.

سآمر بالمعروف وسأنهى عن المنكر، ولن أخاف في الله لومة لائم، وسأصبر – بعون الله – على ما سألاقيه من أذى الناس، سأقول للظالم كفى ظلمًا، وسأنتصر للحق ولو على نفسي أو أقربائي..

(١) يقول ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللّٰهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللّٰهم اعط ممسكا تلفا**» متفق عليه.

مع أهلي:

سألزم زوجتي وبناتي الحجاب الشرعي السابغ الساتر، وسأربي أولادي على حب الإسلام والعمل من أجل رفعته، وأن يكونوا قدوة صالحة أينما كانوا، وسأحرص على تعليمهم ما يحتاجونه من علوم الدين، وكذلك علوم الدنيا من طب وهندسة وزراعة و...، دون أن تكون نياتهم فيها طلب العلو في الأرض بل ليُصلحوا الدنيا بالدين، وليقدموا للناس الصورة الطيبة للمسلم في معاملاته وأخلاقه وكفاءته، فلن يتقدم المسلمون إلا إذا التزموا بدينهم، وكانوا عبيدًا مخلصين لله، وفي نفس الوقت كانوا عالِمين بزمانهم، فلا ينبغي أن يكونوا في وادٍ والناس في وادٍ آخر...

ومع حرصي على تعليمهم علوم الدنيا سأعمل على أن يكونوا من أهل كتاب الله المتدبرين لِما فيه، العاملين به، فالقرآن زينة المرء في الدنيا، ونوره في قبره، وشفيعه يوم القيامة... أهله هم أهل الله وخاصته.

وسأجعل بعضًا من أولادي يتخصص في العلوم الشرعية فالعلماء ورثة الأنبياء، والعالِم يستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في البحر على أن يكون هذا بعد السير قُدُمًا في طريق

تزكية نفوسهم حتى لا يكون العلم خادمًا لحظوظ أنفسهم، فالعلم من أعظم ما يُتَكبر به إن صادف نفسًا غير مزكاة.

.. سأزرع فيهم حب الجهاد في سبيل الله، والرغبة الأكيدة في نيل الشهادة لعل واحدًا منهم ينالها فيكون سببًا للشفاعة في سبعين من أهله.

أما بناتي فسأربيهن على أن يكن زوجات صالحات، تعين الواحدة منهن زوجها على طاعة الله، وتقول له حين تودعه في الصباح: اتق الله فينا فإنا نصبر على الفقر ولا نصبر عن النار.

سأعوّدهم جميعًا – بمشية الله – على عدم النظر إلى من هو أعلى منهم شأنًا في الدنيا، بل ينظرون إلى من هو أقل منهم ليستشعروا نعمة الله عليهم.

سأُكثر من الحديث معهم حول نعم الله علينا ليتمكن حب الله من قلوبهم، وسأرفع شعار «احفظ الله يحفظك» ليخافوا مقام الله ويرجوا مثوبته.

سأقيم الإسلام في بيتي، فلن يُسمع فيه غناء خليع أو موسيقى ماجنة، ولن يُفتح التلفاز إلا لمشاهدة المفيد النافع، أو الترويح اليسير عن القلوب دون التعرض لما يغضب الله عز وجل.

.. سنعمل جميعًا على الاستيقاظ قبل الفجر نتهجد ونتضرع لله عز وجل وقت السحر لنفوز بجزء من الغنيمة التي يمنحها الله – سبحانه – لعباده المتهجدين كل ليلة.

.. سأربيهم جميعًا على عدم السخرية من أحد أو الاستهزاء به، وسأزرع فيهم عقيدة أن ميزان التفاضل بين الناس هو تقوى الله، فليس للشهادات أو المناصب أو السن أو النسب شأن في تميز شخص عن شخص عند الله عز وجل.

.. سأوجههم كذلك إلى عدم احتقار أي مسلم مهما ولج في المعاصي فالخاتمة مجهولة، ولعل الله عز وجل يطلع على قلب العاصي فيجد فيه ذلًّا وانكسارًا وخوفًا منه سبحانه وتعالى فييسر له سبل الهدى ويختم له بخير، وفي المقابل فقد يرى سبحانه في قلوبنا كِبرًا وغرورًا فيختم عليها، ويحبط أعمالنا فتكون الخاتمة سيئة والعياذ بالله..

وسأعلمهم أنه إذا مَنَّ الله عز وجل على واحد منهم بالالتزام بفضيلة أو عزيمة فلا ينبغي أن يشعر بأفضليته على غيره ممن لم يقم بها، فهذا مدخل خطير للإعجاب بالنفس مما يسبب حبوط العمل، فرُب معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خيرًا من طاعة أورثت عُجبًا واستكبارًا.

سباق نحو الجنان:

لن أتنافس مع أحد من أجل الدنيا، فمن زاحمني في شيء منها تركته له، وفي المقابل سأتنافس مع المتنافسين في عمل الآخرة، وسأتسابق معهم إلى الله عز وجل كما أخبرنا مولانا ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٣].

.. سأحرص على اتباع سنة الحبيب المصطفى ﷺ في كل صغيرة وكبيرة ما استطعت، وأهم سنة ينبغي عليّ اتباعها السير على خطاه والتأسي به فيما فعله مع قومه حتى استطاع بإذن الله أن يقيم دولة الإسلام الأولى التي بسطت نفوذها على مشارق الأرض ومغاربها في سنوات معدودة.

أنقذ غيرك:

.. سأكون رفيقًا بالناس، باشًّا في وجوههم، متلطفًا في دعوتهم، وسأرفع شعار «أصلح نفسك، وادع غيرك»، فأغلبهم نيام وبحاجة إلى من يوقظهم ويبصرهم بحقيقة الدنيا، وهذا لن يتأتى إلا باستعمال الرفق واللين معهم كما أرشدنا الله جل شأنه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لا للعزلة:

.. لن أعتزل الناس بحجة شيوع الفساد، فالذي يخالطهم ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر عليهم كما أخبرنا بذلك الحبيب المصطفى ﷺ، فلو تركنا الناس فيما هم فيه، ولم نحاول إصلاحهم لأثمنا بتركنا واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مع الناس:

سأفشي السلام وأطعم الطعام وأجيب دعوة من دعاني، وسأعود المريض، وأغيث الملهوف، وسأسعى في خدمة الأرملة والمسكين وكل محتاج..

سأتقن عملي وما تخصصت فيه، وسأكون قدوة لغيري في الصدق والأمانة والوفاء بالوعد.

سأعمل على إقامة دولة الإسلام المنشودة والتي غربت شمسها منذ عشرات السنين، وهذا لن يتأتى بالأماني والأحلام، بل بالعمل الدؤوب المتواصل، وسأضع يدي في يد العاملين للإسلام الذين يقتفون أثر الرسول ﷺ في كيفية إقامته للدولة الأولى.

سأقوم بواجب الدعوة إلى الله في كل وقت، وسأعمل على التخلق بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]..

لن أتصرف تصرفات حمقاء تؤدي إلى نفور الناس من الإسلام، بل سأدعو إلى الله على بصيرة، وسأراعي فقه الواقع والأولويات في تعاملي معهم.

لن أستعجل نصر الله.. فالنصر له وقته المحدود وسنته الجارية، فهو أولًا وأخيرًا من عند الله ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ولن يتنزل على عباده المؤمنين إلا إذا استكملوا شروطه والتي من أهمها نصرة الله على نفوسهم ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وكذلك حسن الإعداد واستنفاد الأسباب المتاحة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

سأكون دائم الاهتمام بأحوال المسلمين في كل مكان، وسأتتبع بصفة خاصة أخبار فلسطين والمسجد الأقصى.

مع النفس:

.. سأقف لنفسي بالمرصاد.. فلن أعجب بحالي، ولن أغتر بعبادتي.. وسأقاوم محاولاتها لدفعي إلى الإعجاب بها والشعور بتميزها على الآخرين... سأخوفها من حبوط العمل وسوء الخاتمة،

وسأجاهدها دومًا على لزوم الصدق والإخلاص..

.. سأغض بصري عما حرم الله، وسأحفظ لساني من الغيبة والنميمة والكذب وسائر الآفات، وسأجعله رطبًا بذكر الله..

.. وسأحرص على حضور قلبي مع لساني وقت الذكر..

.. سأعمل دائمًا على تصحيح نيتي وتنقيتها من الشوائب، فلن أقوم بعمل خوفًصا من الناس أو حياء منهم، أو طلبًا لمنزلة عندهم، فجميعهم لا يملكون لي ولا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، أما عملي فأثره هو الذي سيبقى معي بعد الموت، لذلك سأعض عليه بالنواجذ.

.. لن أنام إلا على توبة واستغفار فلعل روحي تُقبض أثناء نومي.. وسأكون دومًا على استعداد نفسي للقاء الموت، وسأكتب وصيتي لأهلي وأولادي، وسأضع كفني في دولابي.

.. لن أيأس من رحمة الله ولن أقنط إذا ما غلبتني نفسي يومًا فارتكبت معصية أو تركت واجبًا، بل سأسارع بالتوبة والإنابة إلى الله، وأتبع السيئة الحسنة لتمحها كما وعدنا مولانا: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾{إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤].

ضرورة التوازن والاعتدال:

ومع هذا كله فسأكون بمشيئة الله معتدلًا ومتوازنًا في أموري كلها، فأعطي البدن حقه من النوم والراحة والاستجمام، وأعطي زوجتي حقها وكذلك الأولاد، فلن أكون عبوسًا معهم، ولن أضيق عليهم، فالإسلام دين الوسطية لا يصادم الفطرة بل يُلبي احتياجاتها في إطار لا يفسدها.. وكما أن التفريط مذموم فكذلك الإفراط والتشدد فكلاهما على طرفي الوسط.

.. وسأضع دائمًا حديث رسول الله ﷺ نصب عيني والذي قال فيه لعثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يا عثمان! أرغبت عن سنتي؟! فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان! فإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لضيفك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، فصم وافطر، وصل ونم**»[1].

آداب العبودية:

.. سأستعين بالله عز وجل على القيام بما أمرني به وترك ما نهاني عنه، وسألح عليه في السؤال ألا يكلني إلى نفسي طرفة عين، فهو -سبحانه- حين يترك الإنسان لنفسه فإنما يتركه للضعف

---

(١) صحيح الجامع الصغير ح (٧٩٤٦).

والذنب والفجور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

سأجتهد في الدخول عليه –سبحانه– دخول المسكين الفقير المفلس، وسأتضرع إليه تضرع من لا صلاح ولا فلاح له إلا بيده.. سأستغيث به استغاثة الملهوف المشرف على الغرق.

وسأعمل على شكر نعمه بقلبي وجوارحي ولساني.

مفهوم السعادة:

فإذا ما سأل سائل: ولِمَ تعذب نفسك كل هذا العذاب؟ وهل الالتزام بالإسلام يعني الحرمان وحبس النفس في هذا الإطار الضيق؟! فسأقول له: بل راحة نفسي وسعادتها أريد، فالسعادة التي يشعر بها العبد الطائع لربه، المتبع لأوامره لا تقتصر فقط على حياته بعد موته، بل هي بشرى له في الدنيا قبل الآخرة يذوق حلاوتها وينعم بها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

[النحل: ٩٧].

فمن ثمار الطاعة الدنيوية: انشراح الصدر، ونور في الوجه،

وطمأنينة وراحة للبال، وسكينة للنفس، ولا يشعر بهذا كله إلا من ذاق حلاوة الإيمان.. فمن ذاق عرف: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٤].

فحقيقة السعادة التي يسعى إليها الناس هي سكينة النفس وراحة البال والبعد عن الهم والغم، ولقد كنت أيام كنت في الدنيا لا أشعر بهذه المعاني، فكل سبب دنيوي يجلب السعادة سرعان ما يزول أثره وتبقى النفس مضطربة، حائرة، تائهة في أودية الدنيا.

ولو افترضنا أن الأمر كما يعترض السائل بأنني سأحبس نفسي في إطار ضيق وسأحرمها من كثير من اللذات والشهوات فإن الأمر يستحق أكثر من ذلك، فالحياة هنا في القبر رهيبة: ضيق وظلمة ووحشة وألم.. ألا يستحق كل هذا وغيره التضحية بشهوات رخيصة؟!!

لقد انكشفت أمامي الحقيقة كاملة، فلن أطيع الشيطان، ولن أسير وراء وساوسه، وسأجعل حياتي وحياة أولادي كلها لله قدر استطاعتي، وسأعمل على تأمين مستقبلهم، ولكن بفهم جديد للمستقبل.

.. لن أشغل ذهني بالتفكير في الرزق ومتطلبات الحياة المستقبلية، بل سأكون ابن وقتي، وسأغتنم أي فرصة للتزود بالتقوى، وسيكون لي مع موسم الخير شأن آخر كيوم الجمعة، وشهر رمضان، وعشر ذي الحجة، وأيام الحج والعمرة، و.... .

مَنْ سيوفي بوعده؟

.. وفي خضم هذه التخيلات وما فيها من وعود؛ إذ بنا نفيق فنجد أننا مازلنا في الدنيا ولم نغادرها، وإذا بالفرصة التي كنا نتمناها ونحلم بها ما زالت سانحة أمامنا.. فمن منا يا ترى سيوفي بوعده ويعمل على تحقيق حلمه، فيشمر عن ساعديه، ويقول كما قال الرسول ﷺ لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يوم أن جاءه جبريل عليه السلام في غار حراء: «**مضى عهد النوم يا خديجة**».

.. ترى هل سنعتبر بما قد توهمناه، ونفعل ما عزمنا عليه، أم أن الأمر لن يعدو عن كونه تخيل وحُلم سرعان ما يزول أثره من النفس، ثم يعود كل منا إلى سابق حاله من الغفلة والسكرة بالدنيا لنُفاجأ بعد ذلك بملك الموت وقد جاء لقبض الروح، وساعتها لن ينفع الندم، ولن يُجاب لأحد طلبه بالعودة إلى الدنيا، والتاريخ خير شاهد، والقرآن أقوى دليل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ

(٩٩) لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

***

من أخبار المحتضرين

بعد هذه الرحلة التخيلية التي عشناها سويا في الصفحات السابقة، والتي كانت تهدف -بإذن الله- إلى الأخذ بقلوبنا نحو اليقظة؛ ننقل إليك أخي القارئ في الأسطر القادمة أخبارًا لأحوال بعض المحتضرين من سلفنا الصالح لعلها تدفعنا -بعون الله- أكثر وأكثر نحو إفاقة القلب من غفلته ونهضته لتدارك ما فاته، والله المستعان.

وفاة أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما اشتد به المرض قيل له: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: «قد رآني» قالوا: فأي شيء قال لك؟ قال: قال: «إني فعال لما أريد»[1].

ويروى أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما احتضر وابنته عائشة حاضرة فأنشدت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

تقول: فنظر إليّ كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين،

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٤).

ولكن قول الله أصدق: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩]. ثم قال: ياعائشة: إنه ليس أحد من أهلي أحب إليَّ منك، وقد كنت نحلتك حائطا، وإن في نفسي منه شيئاً فردِّيه الى الميراث. قالت: نعم، فرددته. وقال: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن ففعلت، فلما جاء الرسول إلى عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده..

وأوصى أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس فغسلته، وصلى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ، وحُمل على السرير الذي حُمل عليه رسول الله ﷺ، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر، ودفن ليلًا في بيت عائشة مع النبي ﷺ، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ، وألصقوا لحده بلحده، وجُعل قبره مسطحا مثل قبر النبي ﷺ ورُش عليه بالماء[1]..

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/١٩٧)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/٣٢٥).

وفاة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن ابن عباس أنه دخل على عمر حين طُعن فقال: أبشر يا أمير المؤمنين أسلمت مع رسول الله ﷺ حين كفر الناس وقاتلت مع رسول الله ﷺ حين خذله يعني الناس وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنك راض ولم يختلف في خلافتك رجلان فقال عمر أعد فأعدت فقال عمر المغرور من غررتموه، لو أن لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلع(١)..

وهذا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا عن اللحظات الأخيرة في حياة الفاروق فيقول: أنا آخركم عهداً بعمر، دخلت عليه، ورأسه في حجر ابنه عبد الله بن عمر فقال له: «ضع خدي بالأرض، قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال: «ضع خدي بالأرض لا أم لك»، في الثانية أو في الثالثة، ثم شبك بين رجليه، فسمعته يقول: «ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي» حتى فاضت نفسه(٢)

وفاة معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما وقع الطاعون بالشام قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهم أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذا. فطعنت له امرأتان فماتتا ثم طعن ابنه

(١) تاريخ بغداد (٨/ ٢٩١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٢٩/٤٤).
(٢) ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٦٠).

عبدالرحمن فمات. ثم طعن معاذ بن جبل فجعل يغشى عليه فإذا أفاق قال: اللّهم غمني غمك فوعزتك إنك لتعلم أني أحبك. ثم يغشى عليه. فإذا أفاق قال مثل ذلك

وقال عمرو بن قيس: إن معاذ بن جبل لما حضره الموت قال: انظروا أصبحنا فقيل: لم نصبح. حتى أتي فقيل: أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار!

مرحبًا بالموت مرحبًا زائر حبيب جاء على فاقة!

اللّهم تعلم أني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، إني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر

وقال الحسن: لما حضر معاذا الموت جعل يبكي فقيل له: أتبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت وأنت فقال: ما أبكي جزعا من الموت إن حل بي ولا دنيا تركتها بعدي ولكن إنما هي القبضتان فلا أدري من أي القبضتين أنا[١].

(١) أسد الغابة (ص: ١٠٢١)، وتاريخ دمشق ٢/٢٩٩، وحلية الأولياء ١/٢٣٩.

وفاة بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال بلال حين حضرته الوفاة: غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه، قال تقول امرأته: وا ويلاه. قال يقول هو: وا فرحاه[1].

وفاة أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن إبراهيم بن الأشتر، عن أبيه، عن أم ذر، قالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت، فقال لي: ما يبكيك؟ فقلت: ومالي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفنا لي ولا لك؟ قال: فأبشري ولا تبكي؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: «**ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين**». وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات في قرية وجماعة، فأنا ذلك الرجل، والله ما كذبت ولا كذبت، فأبصري الطريق. فقلت أنا وقد ذهب الحاج وتقطعت الطريق؟ قال اذهبي فتبصري، قالت: فكنت أشتد إلى الكثيب، ثم أرجع فأمرضه، فبينما أنا وهو كذلك إذا أنا برجال على رحالهم كأنهم الرخم تخد بهم رواحلهم. قالت: فألحت بثوبي فأسرعوا إلي حتى

(١) تاريخ دمشق (١٠/ ٤٧٥).

وقفوا علي فقالوا: من هو؟ قالت: أبو ذر، قالوا: صاحب رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال: أبشروا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين »، فما من أولئك النفر رجل إلا وقد هلك في قرية وجماعة، والله ما كذبت ولا كذبت . أنتم تسمعون أنه لو كان عندي ثوب يسعني كفنا لي أو لامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها، أني أنشدكم الله ثم إني أنشدكم الله ألا يكفني رجل منكم كان أميرًا أو عريفًا أو بريدًا أو نقيبًا، وليس من أولئك النفر إلا وقد قارف ما قال إلا فتى من الأنصار، فقال: أكفنك يا عم، أكفنك في ردائي هذا أو في ثوبين في عيبتي من غزل أمي. قال: أنت فكفني، فكفنه الأنصاري من النفر الذين حضروه، وقاموا عليه ودفنوه في نفر، كلهم يمان[1] .

وفاة أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

عن جعفر بن زيد العبدي أن أبا الدرداء لما نزل به الموت بكى فقالت له أم الدرداء وأنت تبكي يا صاحب رسول الله ﷺ قال نعم ومالي لا أبكي ولا أدري على ما هجم من ذنوبي.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر.

وروي أنه لما نزل به الموت دعا أم الدرداء ضمها إليه وبكى وقال يا أم الدرداء قد ترين ما نزل بي من الموت إنه والله قد نزل بي أمر لم ينزل بي قط أمر أشد منه فإن كان لي عند الله خير فهو أهون ما بعده، وإن تكن الأخرى فوالله ما هو فيها بعده إلا كحلاب ناقة ثم بكى وقال يا أم الدرداء اعملي لمثل مصرعي هذا، يا أم الدرداء إعملي لمثل ساعتي هذه ثم دعا ابنه بلالا فقال ويحك يا بلال اعمل لساعة الموت اعمل لمثل مصرع أبيك واذكر به صرعتك وساعتك.

وعن أم الدرداء أن أبا الدرداء لما احتضر جعل يقول من يعمل لمثل يومي هذا، من يعمل لمثل ساعتي هذه، من يعمل لمثل مضجعي هذا، ثم يقول «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة»[(١)].

وفاة سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن أنس قال دخل سعد على سلمان يعوده فوجده يبكي قال ما يبكيك أبا عبد الله ألست قد صحبت النبي ﷺ ؟ ألست ألست. قال: ما أبكاني صبابة الدنيا ولا كراهية الآخرة، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهدا فلا أراني إلا قد تعديت، قال: وما عهد إليكم؟

(١) تاريخ دمشق (٤٧/ ١٩٧).

قال: عهد إلينا أن يكون زاد أحدنا من الدنيا كزاد الراكب وما أراني إلا قد تعديت، وأما أنت يا سعد فاتق الله في حكمك إذا حكمت وفي قسمك إذا قسمت[١].

وعن بقيرة امرأة سلمان أنها قالت لما حضره الموت: دعاني وهو في علية له لها أربعة أبواب، فقال: افتحي هذه الابواب فإن لي اليوم زوارا لا أدري من أي هذه الابواب يدخلون عليَّ، ثم دعا بمسك فقال: أديفيه في تور ثم انضحيه حول فراشي، فاطلعت عليه فإذا هو قد أُخذ روحه فكأنه نائم على فراشه[٢] ..

وفاة عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ :

عن الشعبي قال لما حضر عبد الله بن مسعود الموت دعا ابنه فقال: يا عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود إني موصيك بخمس خصال فاحفظهن عني: أظهر اليأس للناس؛ فإن ذلك غنى فاضل، ودع مطلب الحاجات إلى الناس؛ فإن ذلك فقر حاضر، ودع ما تعتذر منه من الأمور ولا تعمل به، وإذا استطعت أن لا يأتي عليك يوم إلا وأنت خير منك بالأمس فافعل، وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع كأنك لا تصلي صلاة بعدها.

(١) تاريخ دمشق (٢١/ ٤٥٠)، وحلية الأولياء، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٥٢١).
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٥٣).

وعن أبي طيبة الجرجاني قال دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود وهو مريض قال: ما تشتكي قال: أشتكي ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: أشتهي رحمة ربي. قال: أفلا ندعو لك طبيبا؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي به. قال: تتركه لبناتك؟ قال: لا حاجة لهن به[1].

وفاة معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

يؤثر عنه رضي الله تعالى عنه أنه لما حضرته الوفاة قال اللّٰهم ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللّٰهم أقل عثرتي واغفر زلتي وعد بحلمك عليَّ من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك، ثم بكى رضي الله تعالى عنه حتى علا نحيبه[2] ..

وفاة أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب قال: دعا أبو موسى فتيانه حين حضرته الوفاة قال: اذهبوا فاحفروا وأوسعوا وأعمقوا. فجاءوا فقالوا: قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا. فقال: والله إنها لإحدى المنزلتين: إما ليوسعن علي قبري حتى تكون كل زاوية منه أربعين ذراعا، ثم ليفتحن لي باب إلى الجنة فلأنظرن إلى أزاوجي

(١) تاريخ دمشق (٣٣/ ١٨٦).
(٢) السيرة الحلبية (٣/١٣٧).

ومنازلي وما أعد الله لي من الكرامة، ثم لأكونن أهدى إلى منزلي مني اليوم إلى بيتي، ثم ليصيبني من ريحها وروحها حتى ابعث.. وان كانت الأخرى - ونعوذ بالله منها - ليضيقن علي قبري حتى يكون في أضيق من القناة في الزج، ثم ليفتحن لي باب من أبواب جهنم فلأنظرن إلى سلاسلي وأغلالي وقرنائي، ثم لأكونن إلى مقعدي من جهنم أهدى مني اليوم إلي بيتي، ثم ليصيبني من سمومها وحميمها حتى أبعث[1].

وفاة سعد بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

عن ابن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المازني، أحد بني النجار أن رسول الله ﷺ قال: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا.

فنظر فوجده جريحا في القتلى وبه رمق، قال: فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات.

فقال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته.

(١) تاريخ دمشق (٣٢/ ٩٨)، وحلية الأولياء..

وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف! قال: ثم لم أبرح حتى مات وجئت النبي ﷺ فأخبرته خبره[١].

وفاة عُبَادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت قال: لما حضرت عبادة الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن - يعني الدار - ثم قال: اجمعوا لي موالي وخدمي وجيراني ومن كان يدخل علي. فجمعوا له فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي عليّ من الدنيا وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو - والذي نفس عُبَادة بيده - القصاص يوم القيامة، وأحرج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي، قال: فقالوا: بل كنت والدا، وكنت مؤدبا، قال: وما قال لخادم سوءا قط، فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم. قال: اللّٰهم اشهد. ثم قال: أما لا فاحفظوا وصيتي، أحرج على إنسان منكم يبكي علي، فإذا خرجت نفسي فتوضؤا وأحسنوا الوضوء ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجدا فيصلي ثم يستغفر لعبادة ولنفسه؛ فإن الله تبارك وتعالى قال: «استعينوا

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٧٨)، والبداية والنهاية (٤/ ٤٤).

بالصبر والصلاة» ثم أسرعوا بي إلى حفرتي ولا تتبعني نارا[١].

وفاة محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله:

دخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

فقال: أصبحت من الدنيا راحلا، وللإخوان مفارقا، ولسوء عملي ملاقيا، ولكأس المنية شاربا، وعلى الله تعالى واردا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي
جعلت رجائي نحو عفوك سلما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته
بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب
لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

ولولاك لم يغوي بإبليس عابد
فكيف وقد أغوى صفيك آدما[٢]

---

(١) تاريخ دمشق (٢٦/ ٢٠٤).

(٢) تاريخ دمشق (٥١/٤٣٠)، وسير أعلام النبلاء (١٠/٧٦)، وتاريخ الإسلام (١٤/٣٤٠).

وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنين إنك قد فغرت أفواه ولدك من هذا المال فلو أوصيت بهم إلي وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم فلما سمع مقالته أجلسوني فأجلسوه فقال قد سمعت مقالتك يا مسلمة أما قولك إني قد أفرغت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقا هو لهم ولم أكن لأعطيهم شيئا لغيرهم وأما ما قلت في الوصية فإن وصيي فيهم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وإنما ولد عمر بين أحد رجلين إما رجل صالح فسيغنيه الله وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ادع لي بني فأتوه فلما رآهم ترقرقت عيناه وقال بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم وبكى يا بني إني قد تركت لكم خيرا كثيرا لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقا يا بني إني قد مثلت بين الأمرين إما أن تستغنوا وأدخل النار أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إلي قوموا عصمكم الله قوموا رزقكم الله[١].

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة كان عنده مسلمة بن

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ١٠١)

عبد الملك وزوجته فاطمة والخصي فقال قوموا عني فإني أرى خلقا ما يزدادون إلآ كثرة ما هم بجن ولا إنس قال مسلمة فقمنا وتركناه وتنحينا عنه وسمعنا قائلا يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ثم خفت الصوت فقمنا فدخلنا فإذا هو ميت مغمض مسجى[١] .

***

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ١٠٢)

الفهـــرس

***